

اليوم خمر وغداً أمر

كانت الشمس الغاربة ترسل شعاعها على رأس دمّون، ذلك الجبل اليمنى الشامخ، فتصبغه بألوان عجيبة من حمرة إلى صفرة إلى زرقة، تتراقص عليه كأنما هو ملعب من ملاعب الجان تنشر فوقه حللها الشفافة الخفية.

وجلس امرؤ القيس وحده فى ذلك المساء أمام بيته على صخرة اتخذها مقعداً، وجعل ينظر إلى الجبل الشاهق وهو ممتلئ القلب بالكآبة، فوجد خياله يذهب برغمه إلى الخيمة التى لاحت له منذ أيام وهو فوق الربوة، وإلى المرأة التى رآها عند بابها تمخض اللبن، فتحرك متضجراً يريد أن يصرف عن ذهنه تلك الصورة فلم يقدر، فقام زاهباً إلى بيته وملاً كأساً من زق الخمر ليغرق فيها همه، كما كان يفعل كلما ساورته الشجون ولجت به.

وفيما هو خارج من البيت وقعت عينه على صديقه عمرو بن قميّة يقصد نحوه بخطى مترددة، وقد ارتسم على وجهه الشوق والإشفاق؛ فنظر نحوه فى حيرة، وأحس بكراهة شديدة لمقدمه، لأنه أصبح لا يستريح إلى مجلس صديق، ولا يهتز إلى طرب، ولا تنبسط نفسه إلى سمر، بل كان يطلب الوحدة، ويباعد أصحابه ليخلو إلى نفسه ويناجيها بما يضطرم فيها من وجدته وشجنه.

غير أنه ملك نفسه ووقف ينتظر صديقه وهو يتكلف الابتسام، وقال بعض ألفاظ الترحيب خشية من إيلام ضيفه الوافد عليه. وجلس الصديقان بعد تحية قصيرة، وعاودهما الصمت، فقد كان امرؤ القيس قطب مجالس أصدقائه، ومعين سمرهم وطربهم، فكان إذا صمت وأطرق لم يجر في المجلس حديث.

وأراد امرؤ القيس أن يحيى مجلس صديقه بشيء غير الحديث فوضع كأسه على الصخرة التي كانا جالسين عليها وقام إلى الخيمة فأحضر زق الخمر وحمل معه كأساً من النحاس ملاًها لصاحبه، ثم أتى بآلة النرد، وعلق مصباحاً في عمود الخيمة، ثم عاد وجلس مع صديقه يلاعبه ليتسلى على الشراب، ثم طلع البدر وهب النسيم رُخاءً، فأخذت أشجان امرئ القيس تنقش عنه شيئاً بعد شيء مع توالى اللعب والشراب، حتى بدأ يضاحك صديقه ويمازحه ويتغنى له ببعض شعره كلما انتصر عليه في دَسْت من اللعب.

وفيما كان الصاحبان منصرفين إلى لهوهما، وقد ظهر عليهما أثر الخمر، أقبل رجل يسير مسرعاً، فالتفتا نحوه فرأياه يقصد نحوهما، فقام امرؤ القيس وذهب إليه لينظر من يكون، وما كاد يتبينه في ضوء القمر حتى رفع يديه وصاح صيحة عالية وهو يضمه إلى صدره قائلاً: «عامر!».

فقال الرجل وهو يضمه بعطف وحنن: «ولدى! أبا وهب!» وكان ذلك الرجل عامراً أبا فاطمة وابن عم أبيه.

ووقفنا لحظة قصيرة ينظر أحدهما إلى الآخر فى صمت، وأدرك امرؤ القيس من نظرة صاحبه أنه يريد أن يحدثه، فمال به إلى ناحية وقال له يريد أن يفتح باب الحديث: «وكيف عرفت مكانى؟». فقال عامر بصوت متردد: «أخبرنى أبو عنبسة. أخبرنى جابر ابن يحيى الثعلبى».

فسرت رعدة خفيفة فى جسم امرئ القيس عند سماع اسم ذلك الرجل، وتمثلت له صورة فاطمة وهى واقفة أمامه منذ أيام فى الخيمة، تناديه وهى زاهله مشدوهة. وكاد يسأل أباه عنها، وكيف تركها؛ ولكنه ملك نفسه فصرف الحديث قائلاً: «لكنى بك تحمل إلى قولاً».

فقال عامر بصوت ضعيف: «نعم، جنئت إليك بنبأ هائل. تقوياً ولدى، وتعزاً عن أبيك». ثم أطرق حزيناً وصمت.

جالت الأفكار سريعة متدافعة فى رأس امرئ القيس عند سماعه قول الرجل، ولكنه لم يحرك ساكناً، بل نظر إليه قائلاً: «إنذا قد مات حجر؟».

فهز عامر رأسه بحزن وقال بصوت ضعيف: «بل قتل حجر. قتل الملك حجر».

فأخذ امرؤ القيس بيده وذهب به إلى صخرة بعيدة فجلس عليها وأجلسه إلى جانبه وقال له: «أخبرنى عن قتله، وكيف قتل».

وكان يتكلم بصوت هادئ لا يظهر فيه أثر من الحزن أو الاضطراب. فنظر إليه عامر فى كثير من الدهشة والإعجاب، ثم أخذ يقص عليه أخبار أبيه فى بنى أسد وثورتهم عليه، وإيقاعه بهم، ثم أخبره بحديث نفيهم إلى تهامة وما أعقب ذلك من اضطرابه إلى استرجاعهم عند ما بلغه خبر هزيمة أبيه الملك الحارث، وإخراجه من الحيرة، وقتل بنى آكل المرار، وكان امرؤ القيس يسمع كل ذلك صامتاً كأنه يسمع قصة رجل من العرب غير أبيه.

ومضى الرجل فى حديثه فقال: «لقد عدت إلى أبيك عندما بلغنى اشتداد الثورة عليه. وقد حاولت جهدى أن أقيم أمره بمساعدة ذلك الصديق الوفى ربيعة».

فتحرك امرؤ القيس وقال: «ربيعة؟ وهل كان معك؟».

فقال عامر: «بقى معنا حتى قتل دون أبيك. لقد كان رجلاً كريماً». ثم مضى فى حديثه فقال: «ذهب أبوك إلى العراق ليرى الملك الحارث قبل موته وعاد بنو أسد إلى أرضهم ولكنهم كانوا يزدادون كل يوم جرأة وتمرداً، ولم نقدر على أن نملكهم كما كان يملكهم أبوك من قبل. وذلك الشاعر الجبان عبيد بن الأبرص! ويل له! لقد جعل يحرضهم ويذمرهم ويثيرهم بعد أن كان يتذلل لأبيك ويستعطفه. ويل لهذا الثعبان الدنىء! لقد صدق أبوك؛ فما أحراره أن يقطع عضواً فعضواً!».

فتحرك امرؤ القيس عند ذلك قلقاً، واستمر عامر فقال:
«ثم تسربت أنباء موت الحارث إلى بنى أسد، ولست أدري كيف
أتاهم ذلك النبأ سريعاً. فقد علموا به كأن الريح قد حملته إليهم.
فزادت جرأتهم، وأخذ كهانهم يحرضونهم على التمرد ويمنونهم
بالنصر ويطمعونهم في أبيك، حتى شمروا لحربه ووقفوا
ينتظرون مجيئه».

فتحرك امرؤ القيس مرة أخرى وقال: «ويل لهم! ولكن كيف
وصلوا إلى حجر دونكم. أين ذهب كندة؟ وأين كانت قيس؟
أين ذهب تغلب؟ وأين الصنائع التي كانت تخدم الملك؟».

فقال عامر منكسراً: «لقد دافعنا حتى لم تبق لنا قوة. وقتل من
كندة معظمها، ووقفت قيس تحميه كما تحمي أبناءها، وكاد حجر
ينجو لولا ذلك الذئب الجائع غلباء».

فصاح امرؤ القيس: «غلباء! ابن الحارث الكاهلي؟».
فقال عامر: «نعم هو. لقد ظل يتربص ثأره في صمت وتكتم
حتى ظفر به».

فقال امرؤ القيس: ثأره؟ وهل قتل حجر أباه؟».

فقال عامر مطرقاً: «قتل أبوه في سجن أبيك».

فصمت امرؤ القيس واستمر الرجل فقال: «واحر قلباه! لكأنى
أرى حجراً وهو يمسك جرحه الذي أصابه في جنبه، يريد أن يوقف
منه سيل الدماء ريثما يعهد إلى بعده. وقد أمرني وهو يشهق

آخر أنفاسه أن أذهب إلى أخيك الأكبر نافع، ثم إلى سائر إخوتك، فمن جزع منهم تركته ومن تحمل النبأ قوياً حملت إليه أموال حجر وسلاحه، وطلبت منه إدراك الثأر. وهأنذا آت إليك وأنت أصغرهم بعد أن جزعوا جميعاً».

فتنفس امرؤ القيس وصمت لحظة ثم قال: «ضيّعتني صغيراً ثم حمّلتني دمه كبيراً! لقد علمت يا أبا الجون أننى كنت فتى لا أجد لذتى إلا فى الصيد والخمر والنساء. ألا لقد آليت على نفسى لا أصيد صيداً ولا أشرب خمراً ولا أقرب امرأة حتى أشتفى بإدراك الثأر للملك الهمام».

فنهض عامر وهو ينظر إلى الفتى بإعجاب وعطف وقال بإجلال عميق: «أبيت اللعن أيها الملك الهمام!».

فقال امرؤ القيس وكأنه لم يسمع تلك التحية: «وأين السلاح؟ أين سلاح أبى وأمواله؟».

فقال عامر: «قد نزلت بأجمالى كلها هناك وراء هذا الوادى». وأشار إلى واد فى الطرف الأقصى من جبل دّمون. فقام امرؤ القيس وذهب يسير فى ببطء والرجل يمشى وراءه حتى بلغا الخيمة، وكان عمرو بن قمية لا يزال هناك فى انتظار عودتهما إليه، فلما بلغاه أراد أن يتدحى ويستأنن فى الذهاب، ولكن امرؤ القيس اقترب منه باسمًا وقال له: «هلم إلى دستك فإننا لم نفرغ بعد منه».

فعاد عمرو إلى مكانه، وجلس امرؤ القيس يلعبه حتى انتهى
الدست، فقام مستأذناً وقال لامرئ القيس: «نراك بخير في
الغداة!».!

فنظر إليه امرؤ القيس صامتاً لحظة، ثم قال بهدوء: «سيكون لنا
في الغد شأن آخر يا عمرو».

فاتجه عمرو إليه كالمستفهم، واستمر امرؤ القيس فقال: «أعدَّ
سيفك ورمحك ودروعك يا عمرو، لقد كنا إلى اليوم نلعب، ونشرب،
ولكننا بعد اليوم نجدُ ونضرب، فالיום خمر، وغداً أمر».
فلم يفهم عمرو معنى قوله، وسأله قائلاً: «أى أنباء حملت
إليك؟».

فقال امرؤ القيس هادئاً: «قتل حجر. قتل الملك حجر».
فارتاح عمرو، وارتد إلى الورا صائحاً: «وكيف لم تخبرني
بذلك ابتداءً؟».

فتقدم امرؤ القيس نحوه ووضع يده على كتفه مهدئاً وقال:
«ما كنت لأفسد عليك دستك. هدي من روعك، فليس يجدينا الذعر».
فرفع عمرو رأسه بكبرياء وعزيمة، وقال متأثراً: «سيكون ثأرنا
هائلاً» وأطرق لحظة في صمت ثم مضى مسرعاً نحو منازلهم.

فأمسك امرؤ القيس بيد عامر، ومضى به إلى خيمته، فجلس
ووضع رأسه بين يديه ساعة في صمت وحزن، وعامر مطرق إلى جواره
يرسم على الأرض خطوطاً بعصاه. فلما رفع امرؤ القيس رأسه، قال:

«لقد ظننت يا أبا الجون أنى نسيتَه. ظننت أنى كرهته وانصرف
قلبي عنه، ولكنى أحس لمنعاه نارًا فى قلبى، وا أبى! وا ملكاه!».
ونظر إلى الجبل العالى الذى كان يقطع صفحة الفضاء فى ضوء
القمر الساطع وقال كأنه يخاطبه: «لقد هلك حجر يا دمُون! متى
يطلع الصبح لأشفى فؤادى؟ إن قلبى يتحرَّق من وجدى عليه
يا دمُون!».»

ثم جعل يقول متغنيًا فى حزن:

تطاول الليل علينا دمون دمون إنا معشر يمانون
وإننا لقومنا محبوبون

ونظر إلى عامر بعد أن انتهى من ترنمه الحزين وقال: «هلم إلى
مناخ الإبل يا عامر. هلم إلى الخلاء فهو أرفق بى» وقام خارجًا إلى
الفضاء الذى غمره ضوء القمر وصاحبه يسير وراءه. ولما صار عند
باب الخيمة عرج على الفرد الذى كان يلعب به مع صديقه فضربه
بقدمه فألقاه على الأرض مكفوءًا، ثم جرد سيفه وضرب زق الخمر
فأسال ما بقى فيه على الرمال، ثم سار فى صمت نحو مناخ الإبل.

* * *